محاضرة 03 :

خصائص الأسطورة

تتميز الأسطورة بمجموعة من الخصائص عن باقي الفنون الأدبية ولعل أبرز هذه الخصائص :

1ـــ الأسطورة قصة أو رواية خيالية، ممزوجة بالخرافات والأوهام، تدور حول أبطال أو آلهة أو ظواهر طبيعية أو اجتماعية لتفسيرها، أو لإقناع الناس بأفكار و عقائد معينة، غالباً ما تكون ذات صبغة دينية أو عقائدية. وهي بهذا المعنى قصة وجود ما، تروي كيف نشأ هذا الشيء، أو ذاك، وهي ترتبط بالواقع في أولياته، وأبطالها كائنات خارقة يُعرفون بما حققوا في عصور التكوين.

2ـ كما أّنها تحمل تعبيراً جماعياً بكل معنى الكلمة، وهذا التعبير الجماعي يتجّلى في أنّ الأساطير إنّما تعكس معتقدات الجماعة وفلسفة الجماعة ورأي الجماعة. والأسطورة هي الصورة الشعرية أو الروائية التي تعبّر عن أحد المذاهب الفلسفية بأسلوب رمزي يختلط فيه الوهم بالحقيقة. فتبدو الأسطورة من هنا حركة حضارية مؤكدة. ومتصلة الحلقات. كانت في طورها الأول جزءا من العبادة يتم آداؤه داخل المعبد أو أمام المذبح _ إن كانا وجدا_ أو قبالة سيل جارف أو على حافة قفر يحتاج إلى الاستمطار كي يخضر، و الأسطورة في طورها الثاني سير آلهة و أبطال و مردة، وهي في طور ثالث_ وقد استخدمت للتعليل و الرمز_ كانت فلسفة وبيانا لقوى اجتماعية ترصد كل ما يسعى وراءه علماء الحضارة.

3ـ والأسطورة عند شتراوس إمّا أسطورة منقولة أو مقتبسة، أيّ نجد جذورها في أسطورة أخرى لدى شعب مجاور وقد تقود دراسة مقارنة بين الأساطير إلى ما يذهب إليه فاروق خورشيد للأسطورة فهي في رأيه" تحدّد القرابة الحقيقية بين النسيج البشري كّله في كلّ مكان وفي كلّ زمان تأكيداً لرأي من يرى في الأسطورة حكاية عن كائنات تتجاوز تصورات العقل الموضوعي . وما يميّزهاعن ا لخرافة هو الاعتقاد بها، فالأسطورة موضع اعتقاد.

وتجدر الإشارة في هذا السياق إلى أنّه بالرغم من تعدد المدارس التي تناولت الأساطير بالدراسة، ومن الإختلافات الموجودة في نتائج تلك الدراسات، إلا أن هناك مبادئ ثلاثة متّفق عليها وهي:

1 ـــ أنّ الأسطورة تصف حقائق تاريخية.

2 ـــ أنّها رموز لحقائق فلسفية.

3 ـــ أنّها انعكاسات لعملية طبيعية.

كما أنّ هذه المدارس في مجملها تتّبع واحدا من مناهج ستة هي:

1 ـــ المنهج اليوهيمري: الذي يعدّ أقدم تلك المناهج و يرى الأسطورة قصة لأمجاد أبطال.

2 ـــ المنهج الطبيعي: الذي يعتبر أبطال الأساطير ظواهر طبيعية تمّ تشخيصها في أسطورة اعتبرت بعد ذلك قصة لشخصيات مقدّسة.

3 ـــ المنهج المجازي: بمعنى أنّ الأسطورة قصة مجازية تخفي أعمق معاني الثقافة.

4 ـــ المنهج الرمزي: الذي يرى الأسطورة قصة رمزية تعبّر عن فلسفة كاملة لعصرها، لذلك يجب دراسة العصور نفسها لفك رموز الأسطورة.

5 ـــ المنهج العقلي: الذي يذهب إلى نشوء الأسطورة نتيجة سوء فهم أو خطأ ارتكبه مجموعة أفراد في تفسيرهم أو قراءتهم أو سردهم لرواية أو حادثة أقدم.

6 ـــ منهج التحليل النفسي: الذي يعتبر الأسطورة رموزا لرغبات غريزية و انفعالات نفسية.

2 ـــ نشأة الأساطير

لا يتّفق علماء التاريخ والميثولوجيا في تفسير نشأة الأساطير وتحديد بدايتها، وبيان أسبابها وبواعثها، على أسباب محددة، فمنهم من يرى أن كلمة الأسطورة ترتبط ببداية الحياة على الأرض ، حيث كان البشر يمارسون السحر ويستحضرون الأرواح الشريرة ويؤدون طقوسهم الدينية لأجل التعايش مع الطبيعة و الرغبة في تفسير ظواهرها، ومنهم من يرى بأنّ الأساطير إنّما نشأت استجابة لعواطف الجماعات القاهرة كالملوك والكهنة.

ومنهم من يرى أنّها تراكم لنتاج الفكر الانساني المبدع في مجال الأدب تصدر في الغالب عن حكيم القوم ويتناولها الرواة بالإضافة عليها من خيالهم الخاص، و قد تتعرض للزيادات وفق الظروف الاجتماعية المستجدة من مجتمع لآخر ومن زمن لآخر، وهناك من ينسب الأساطير إلى المنشأ الطبيعي المتصل بعناصر الطبيعة كالأجرام السماوية والشمس التي طالما سحرت الإنسان وأثارت تأملاته.

ومنهم من يرى أنّها ترجمة دقيقة للحوادث التاريخية ا لجارية، استهدفت نقل تجارب الأولين وخبراتهم المباشرة في ا لبدايات الأولى للحياة على الأرض، ومنهم من اعتقد أنّ الأسطورة استمدت من الطقوس كأداة لإعطاء التبرير لتلك الطقوس التي ورثوها عن آبائهم وتمسّكوا بها دون أن يعرفوا لها معنى أو غاية.

وفي محاولة للوصول إلى أرضية علمية مشتركة في تفسير أصل الأسطورة يقرّر توماس بوليفينشي في كتابه" ميثولوجية اليونان وروما " وجود أربع نظريات في أصل الأسطورة وهذه النظريات هي:

1 ــ النظرية الدينية : التي ترى أنّ حكايات الأساطير مأخوذة كلّها من الكتاب المقدس مع الاعتراف بأنها غُيّرت أو حرّفت، ومن ثَمّ كان هرقل اسماً آخر لشمشون، والمارد ديوكاليون ابن بروميثيوم الذي أنقذه زيوس مع زوجته من الغرق فوق أحد الجبال هو نوح وهكذا.

2 ــ النظرية التاريخية : التي تذهب إلى أنّ أعلام الأساطير عاشوا فعلاً وحقّقوا سلسلة من الأعمال العظيمة، ومع مرور الز من أضاف إليهم خيال الشعراء ما وضعهم في ذلك الإطار الغرائبي الذي يتحرّكون خلاله في جوّ الأسطورة.

3 ــ النظرية الرمزية :وهي تقوم على أنّ كلّ الأساطير بكلّ أنواعها ليست سو ى مجازات فُهمت على غير وجهها الصحيح أو فُهمت حرفيّا من ذلك ما يقال عن أن ساتورن "يلتهم أولاده أي الزمن يأكل كلّ ما يوجد فيه.

4 ــ النظرية الطبيعية : وبمقتضاها يتمّ تخيّل عناصر الكون من ماء وهواء ونار في هيئة أشخاص أو كائنات حية، أو أن ها تختفي وراء مخلوقات خاصة، وعلى هذا النحو وُجِدَ لكل ظاهرة طبيعية – ابتداءً من الشمس والقمر والبحر وحتى أصغر مجرى مائي -كائن روحي يتمثل فيه وتنبني عليه أسطورة أو أساطير.

ومع التأكيد على خصوصيّة كلّ حضارة وتمايزاتها بحسب ظروفها الزمانية والمكانية ومستوياتها المعرفية وخلفياتها الثقافية، فللخصوصيّة انعكاس كبير على بناء ونشأة الأساطير، إلا أنّ هناك نوعاً من التداخل الذي يخلق تكاملا بين النظريات في تفسير أصل الأساطير مهما كان زمنها أو موطنها، فالنظرية التاريخية مثلا تُعطي تفسيراً منطقياً شاملا لنصوص الأساطير من حيث الواقع والمضمون والشكل، وتكاد تفسّر كل الأشياء الواردة في الأساطير، لأنّ الأساطير في مجملها تحكي أفعالاً عظيمة لقوى ملائكية أو بشرية كان لها دور رئيسي في شييد أساسات النظام على هذا الكوكب، و كذلك النظرية ال رمزية تركّز على الشكل الذي ظهرت عليه الأساطير كونها تستخدم الرموز كمجازات للتعبير عن معان عظيمة ولكن باستخدام لغة بسيطة مثيرة، وإنّ فهم هذه الرموز يعتبر المفتاح الرئيسي لفهم الأسطورة بأكملها، أمّا النظرية الطبيعية فليست إلا صورة من صور النظرية الرمزية ا لتي تضفي صفة رمزية على الظواهر الطبيعية من ماء وهواء بكائنات ومخلوقات مرئية من الطبيعة، وإذا كان قدامى المصريّين قد رمزوا لأبجديّتهم برموز من الطبيعة كالطيور والحيوانات والأدوات فيما سُمّي الكتابة الهيروغليفية فإنّ أبجديّة الأسطورة من قوى الطبيعة وظواهرها قد تشخّصت حال تدوينها وأسطرتها في أسماء أفراد، ولو جمعنا النظرية

التاريخية مع الرمزية لحصلنا على تفسير متكامل ومن أبعاد متعدّدة لأصل الأسطورة و نشأتها.